

الهجنـة والـإنسـان الـأخـير
(الـحـفـيـدة الـأمـيرـكـيـة) إـنـمـوـذـجاً

م.م رنا فرمان محمد

آذار ٢٠١٥

مقدمة

في حدود العصر الحديث عُرِفت الكولونيالية دوماً على أنها احتلال قوى أجنبية لبلد معين ومصادرة حقوق أبنائه ، ومنعهم من التحكم بمصيرهم السياسي، والسيطرة على ثروات ذلك البلد لصالح تلك القوى الأجنبية المحتلة ، وكثيراً ما نظر إلى الكولونيالية من زاوية الاستعمار الاستيطاني ، فإذا جاز لنا أن ندقق في هذا التعريف سنجد إنَّ الكولونيالية بحسب التعريف تعني بالضبط مجرد توسيع القوى الأوروبية في العالم الثالث بدءاً من القرن السادس عشر فصاعداً ، في حين أنها (سمة متكررة ومنتشرة في التاريخ البشري)^١ فلا يمكن - بحسب لومبا - عزل الكولونيالية الأوروبية الحديثة عن (تواريخ الاتصال المبكرة كالحروب الصليبية والغزو المغربي لإسبانيا ، والآثار الأسطورية لحكام المغول والثورة الأسطورية للأنكا)^٢ إلاَّ أنه لابد من التمييز بين الاستيطان بوصفه استيلاً على الأرض ، وتدخلًا في البنى السياسية والثقافية لبلد آخر ، والإمبريالية بوصفها نظاماً عالمياً ، خصوصاً مع التفريق بين الجانب السياسي للإمبريالية الذي يتضمن هيمنة البلد الإمبريالي على البلدان المستعمرة ، أو إذا كانت الإمبريالية نظاماً اقتصادياً يسيطر على الأسواق ، كما هو حال العلاقة الأميركيَّة مع كثير من الدول في العالم الثالث ، وبالنطاق (فإنَّ الكولونيالية هي الاستيلاء بالقوة على الأرض والاقتصاد)^٣ وإذا كانت هذه الحقبة قد انتهت تقريرياً بعد حركات التحرر التي شرعت بإنشاء "أنظمة سياسية" فإنَّها قائمة نوعاً ما على استقلال سياسي لم يكتمل يوماً ، فضلاً عن الانشباك الشديد بين هاتين الجهتين المستعمر والمستعمَر في الجوانب الاقتصادية والثقافية .

أمَّا مفهوم ما بعد الكولونيالية فقد اشتمل على الدراسات الثقافية التي كُتبت تأثراً بفكر ما بعد الحداثة ، التي ركزت على آثار الاستعمار على المجتمعات المستعمرة وثقافتها ، فضلاً عن نقد رؤى المركزيات الأوروبية التي أنتجت آيديولوجياً أوروبية متعلالية قائمة على أساس يدعي نقاه الهوية الثقافية الغربية إزاء كل ما هو غير غربي أو هامشي أو على الحافة من وجهة نظر تلك المركزيات ، التي خلقت تحت سطوة الخطاب الكولونيالي الغربي المعتمد بذاته فقط ، الخطاب الذي خلق "صوره" الخاصة عن الآخر كما يريد أن يراه هو ، أو كما يقول إدوارد سعيد (إنَّ تصوير الغرب

^١ الكولونيالية وما بعدها / آنيا لومبا ، تر: باسل المسالمة ، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر – سوريا (ط ١) ٢٠١٣ : ١٨ .

^٢ المصدر نفسه : ١٩ .

^٣ المصدر نفسه : ٤١ .

للشرق ... كان من امتياز السلطة)^١ ويمكن أن نلحظ خيوط أبرز هذا التوجه في كتابات إدوارد سعيد وهو مي بابا وغياتري سيفاك وفرانز فانون وتييري إيكلتون فضلاً عن كثير مما يتعلّق بكتابات التابع في التاريخ الهندي والزنوجة ، ويمكن أن نعد كتاب الاستشراق تدشين واضح لتلك الدراسات .

تأتي الهجنة اليوم مفهوماً مهماً لإشكالية العلاقات التي خلفتها "آليات الاستعمار" بأنواعها بعدها السبب الرئيس عن دأب الشعوب في بلورة هوية لها أي بدءاً بتبلور الهوية بوصفها رد فعل على الخطابات المتعالية للمركزية الغربية وانتهاءً بما أنتجه خطاب الهوية هذا من تناحر ونبذ ورفض بين المجتمعات في البلدان المختلفة وقبلها بين أقليات مجتمع البلد الواحد . فمفهوم الهجنة المتسامح بما ينطوي تحت جناحه من حيادية شعور تجاه الأرض والإنسان فهو أشبه بدعوة نحو تهدئة صرخ الهوية المتطرف وإحلال نداء التسامح وقبول الآخر محله .

في حديثنا عن موضوع الهجنة تأخذ الهوية أولوية الحديث بوصفها المفصل المهم لمفهوم (الآخر) ونقطة الانطلاق الرئيسة للوصول نحو مفهوم الهجنة ، فيتألف هذا البحث من ثلاثة مباحث على وفق جانب نظري وجانب تطبيقي ، فكان الجانب النظري متمثلاً بالبحث الأول الذي تحدثنا فيه عن الهوية وعن الهجنة وإنسان الهجنة ، والبحث الثاني الذي يبدأ فيه الجانب التطبيقي لمفهوم الهجنة إذ وقع الاختيار على رواية (الحفيدة الأميركية) للروائية العراقية (إنعام كجه جي) إنموذجاً للبحث ، وقد ألقينا الضوء بنبذة مختصرة عن النص في بداية هذا البحث ، ثمَّ رصدنا ملامح الهجنة في شخصية النص على وفق ثلاثة جوانب وهي : الجانب النفسي ، والجانب الثقافي ، والجانب العاطفي ، وتحولنا من بعدها إلى رصد الجانب الآخر من شخصية النص متمثلة بملامح بقایا الهوية وروابطها ، ومن ثمَّ نصل إلى نهاية البحث بما أسميناه " الاستنتاج " حول خفايا تلك الشخصية . أمّا البحث الثالث فقد سلطنا الضوء خلاله على أبرز التقنيات الفنية التي استعملتها الروائية في كتابة النص التي تمثلت بما أسميناه (البعد السينمائي) ، وتقنية ما رواه القص ، وتقنية ما وراء التخييل . بعدها تأتي خاتمة البحث حاملة النتائج التي توصل لها هذا الجهد .

^١ السلطة والسياسة والثقافة / إدوارد سعيد : ٢٦٢ .

المبحث الأول : الجانب النظري

الهوية

ربما نستطيع اليوم أن نقول إن البيئة الاجتماعية والسياسية أصبحت أكثر ملائمة للحديث عن الهجنة بمفهومها الذي يقدم خياراً للوضع الإشكالي الراهن لشعوب الشرق الأوسط ، وهي إشكالات نابعة من صلب مفهوم الهوية ، بعد أن أصبحت حاضنة للصراعات الطائفية والعرقية والأيديولوجية وما خلفته من إفرازات أوصلت شعوب هذه الدول نحو حافة الهاوية ، هذا فضلاً عن ضغوط سياسة العولمة وآثارها على المجتمعات ، سياسة وجهت نقداً الخفي بداعفه ، والمعلن بدعواه صوب مفهوم الهوية - بوصفها خصوصية ذات - عبر دعوتها للإلغاء الحواجز وعالمية المفاهيم .

لن أركن للحديث عن الهجنة مباشرة بوصفها موضوع البحث ، إنما سأتوقف قليلاً في البداية وأتأمل الأساق الاجتماعية – السياسية التي دفعت لظهور مفهوم الهجنة ، تلك الأساق التي خلفها المفهوم المتعالي للهوية ، إذ يمكن القول أن الهوية ذات مضمون مزدوج ، فهي إذا كانت تشير إلى خصوصية جماعة معينة عبر مشتركم الثقافي والاجتماعي إرثاً ولغة ، فهي تشير من جانب آخر لأنغلاق وتعصّب ، فضلاً عن خطاب التعالي الذي تحمله "هويات المركزية الغربية" التي سُيّست لصالح الإمبريالية الغربية لمرحلة ما بعد الكولونيالية وما تضمره من رغبة في الهيمنة وإخضاع الآخر المختلف عبر بلورة هويتها المركزية المتعالية ورؤيتها الدونية لذلك المُختلف ، الرؤية التي دفعت الأخير نحو بلورة هوية خاصة به ، هوية التصدي السياسي قبل الاجتماعي .

يقدم إدوارد سعيد رؤية رصينة في أساس الهوية ، والمقصود هنا هي الهوية الغربية / الأنـا ، وقبل الكشف عن هذه الرؤية يستحق تعريف بودريار للهوية عامة أن نتوقف عنده قليلاً ، فهو يعبر عنها بأنـها (حلم من العبثية الحزينة فالفرد يحلم أن يكون نفسه عندما لا يملك أن يفعل ما هو أفضل من ذلك ، إنه يحلم بذاته بالاعتراف بالذات عندما يفقد كل خصوصية)^١ . فإذا كانت الهوية (حلم) بحسب بودريار فهذا يحيلنا على أنها قائمة على أساس رغبة في تشكيل صورة معينة - محلوم بها - عن الذات ، تسعى من خلالها الأخيرة إلى إثبات وجودها بعد أن عجزت عن فعل ما هو

^١ إدوارد سعيد : الهجنة ، السرد ، الفضاء الإمبراطوري / مجموعة من الأكاديميين العرب :

أفضل ومن ثم فإن إثبات الذات أو بناء الهوية يتطلب بالضرورة وجود (آخر) مغایر تُمارس عليه خطابات التعالي ، فإن الأخير يكون بذلك خاضعاً أيضاً لآليات الصناعة ضمن مواصفات تضمن تميُّز الذات عليه وإثبات الأفضلية ، فالغرب مثلاً ليس عاجزاً عن فعل الجيد لكنه يسعى للأفضل ، والمفاضلة لا تحدث إلا بين طرفين كي يبرز أيهما الطرف الأفضل عن الطرف الآخر ، ومن ثم لا يمكن للغرب إبراز أفضليتهم إلا على آخر عاجز .

وعوداً على إدوارد سعيد فأنَّه يجد الغرب قد تمكن من صناعة هوية مركبة شعارها "الحضارة" قائمة على أساس إرث ثقافي عريق هو الإرث اليوناني/الرومانى ذي النزعة الإنسانية العقلانية^١ ، إذ إنَّ تركيز العقل الغربي على التأصيل التاريخي لحضارته باعتبارها الوراثة الشرعية للفكر (الإنساني) العقلي ضد الغيبي اليوناني/الرومانى كان الهدف ورائه هو تحقيق نتائجين هامتين ؛ الأولى هي إحداث قطيعة مع عصر القرون الوسطى الذي ساد فيه الفكر الغيبي للمسيحية طوال قرون ، وإنفصاله ضمِّناً عبر الربط المباشر بين الحضارتين اليونانية والرومانية وحضارة الأنوار في العصر الحديث اللتان تشتهران في النزعة الإنسانية ، وكان أوروبا تتبرأ من الفكر الغيبي الذي جعلها مرحلة من الزمن شبِّهها بالإرث الشرقي ، وتركيزها على النزعة الإنسانية العقلانية باعتبارها ميزة التفرد الغربي على العالم ، والنتيجة الثانية هي ضم النتاج اليوناني / الرومانى لا باعتباره إرثاً إنسانياً عاماً ، إنما باعتباره مقطعاً زمنياً من مقاطع التفوق الدائم للحضارة الغربية على الجميع .

إنَّ هذه الهوية المركبة للغرب تضع الآخر بالضرورة في الزاوية التي توجب عليه إيجاد خطابه المضاد أو على الأقل الذي يُحتمُّ عليه آلية الدفاع عن النفس إزاء ما يواجهه من ضغوط خطابية تضعه في قلب الضعيف ، فكان له ذلك من خلال تجربة سياسة الهوية أيضاً التي نتج عنها ظهور الآيديولوجيا القومية ، التي يراها إدوارد سعيد بأنها ثمرة إبستومولوجيا الإمبريالية حول الهوية المغلقة ، ذلك بوصفها ردًا مكافئاً على خطابات العنصرية والعرقية ، على الرغم من أنه لم ينكر فاعليتها في بلورة حركات الاستقلال ضد المستعمر في دول العالم الثالث تحديداً ، ورغبتها في التصدي للسياسات الإمبريالية عبر خلق برنامج سياسي وثقافي للاستقلال وإعادة البناء ، إلا أنها سرعان ما أثبتت قصورها للمرحلة التالية ، فهي لم تسير بخطوات مدرسة لأنَّ سياسات القومية بحسب فرانز فانون قد عجزت عن تحويل الوعي القومي بعد مقاومة الإمبريالية إلى ما يدعوه فانون بـ " الوعي الاجتماعي " فكان أن

^١ ينظر : إدوارد سعيد : الهجنة ، السرد ، الفضاء الإمبراطوري / مجموعة من الأكاديميين العرب : ٣٤ .

أفرزت الأحزاب القومية جهلاً اجتماعياً ومجتمعات قدس (الزعيم) وتلتـف حول مركـزية العاصـمة أي بعبارة أخـرى مجـتمعـات انـعدـمت فيـها الـديمقـراـطـية^١ ، بل هي لا تصلـح أن تكون بـيـئة ملـائـمة لـنـموـ الـحرـيـات ، لأنـها أـنـجـت (فـرـداً عـصـابـياً مشـوهـاً أـصـبـحـ فيما بـعـدـ عـائـقاً أـمـامـ كلـ دـيمـقـراـطـيةـ حـقـيقـيةـ)^٢ لأنـهـ برـغـبةـ أوـ بـدـوـنـ رـغـبةـ يـكـونـ خـاصـعاًـ لـخـطـابـ الـقـومـيـ الـقـائـلـ بـإـمـكـانـيـاتـ النـصـرـ وـضـرـورـةـ الـاسـتـمرـارـ ، وـمـعـبـاًـ بـمـقـولـاتـهاـ لـدـرـجـةـ تـحـيلـهـ إـلـىـ فـرـدـ يـسـتـهـجـنـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ وـلـاـ يـفـقـهـ كـيـفـيـةـ التـعـاطـيـ معـهاـ بـعـدـهـ نـظـامـاًـ سـيـاسـياًـ يـعـيـشـ فـيـ ظـلـهـ ، وـخـيرـ مـثـالـ عـلـىـ ذـلـكـ ؛ـ التـجـربـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ الـعـرـاقـيـةـ الـتـيـ قـامـتـ بـعـدـ حـكـمـ قـومـيـ منـحرـفـ عـنـ مـسـارـهـ لـعـقـودـ طـوـيـلةـ ،ـ فـهـيـ تـجـربـةـ إـنـ لمـ نـرـدـ أـنـ نـكـونـ مـتـشـائـمـينـ وـنـقـولـ لـمـ يـحـالـفـهـاـ النـجـاحـ فـإـنـهاـ مـتـعـثـرـةـ الـخـطـىـ عـلـىـ أـقـلـ تـقـدـيرـ ،ـ فـيـ مـجـتمـعـ اـتـجـهـتـ بـهـ سـيـاسـةـ الـحـزـبـ الـقـومـيـ نـحـوـ هـاـوـيـةـ الـدـكـتـاتـورـيـةـ عـلـىـ أـثـرـ عـدـمـ الـوعـيـ الـاجـتمـاعـيـ الـذـيـ أـنـجـتـهـ سـيـاسـاتـ الـقـومـيـ ،ـ التـيـ عـبـأـتـ مـجـتمـعـ بـأـكـملـهـ وـعـلـىـ مـدـىـ عـقـودـ طـوـيـلةـ نـحـوـ (ـ الـقـائدـ الـمـلـهـمـ)ـ وـ (ـ رـمـزـ الـنـصـرـ الـأـوـحـدـ)ـ الـذـيـ يـعـتـاشـ عـلـىـ ثـقـافـةـ التـصـفـيقـ إـحـدـىـ الثـقـافـاتـ الـتـيـ أـفـرـزـتـهـاـ الـدـكـتـاتـورـيـةـ ،ـ وـمـنـ ثـمـ لـازـالتـ عـوـاقـبـ ذـلـكـ الـانـحرـافـ عـلـىـ مـخـتـلـفـ الـمـسـتـوـيـاتـ تـعـرـقـ مـسـيـرـةـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ فـيـ الـوقـتـ الـحـاضـرـ وـيـظـهـرـ ذـلـكـ جـلـيـاًـ فـيـ أـدـاءـ الـمـجـتمـعـ وـالـحـكـومـةـ عـلـىـ حدـ سـوـاءـ .ـ

الهـجـنةـ

تـأـتـيـ الـهـجـنةـ مـفـهـومـاًـ مـضـادـاًـ لـخـطـابـ الـهـوـيـةـ بـكـلـ ماـ يـنـطـوـيـ عـلـيـهـ مـنـ آـثـارـ سـلـبـيـةـ ،ـ وـماـ خـلـفـ مـنـ تـدـاعـيـاتـ قـلـبـتـ مـواـزـينـ الـحـيـاةـ الـاجـتمـاعـيـةـ لـلـشـعـوبـ سـوـاءـ عـلـىـ مـسـتـوىـ مـمـارـسـاتـ الـمـرـكـزـيـةـ الـمـتـعـالـيـةـ لـلـهـوـيـةـ الـغـرـبـيـةـ ،ـ أـوـ عـلـىـ مـسـتـوىـ فـعـلـ التـهـمـيشـ الـذـيـ لـحـقـ بـالـفـئـاتـ الـمـنـدـرـجـةـ ضـمـنـ مـقـولـاتـ الـهـوـيـةـ الـقـومـيـةـ أـوـ الـآـيـديـولـوـجـيـةـ الـأـخـرـىـ لـلـأنـظـمـةـ السـيـاسـيـةـ لـلـدـوـلـ الـشـرـقـيـةـ أـوـسـطـيـةـ مـتـمـثـلـةـ بـالـأـقـلـيـاتـ ،ـ فـتـظـهـرـ لـنـاـ الـهـجـنةـ بـخـطـابـهاـ الـمـناـهـضـ لـكـلـ ذـلـكـ مـفـهـومـاًـ قـادـرـاًـ عـلـىـ اـسـتـيـعـابـ الـهـوـيـةـ دـوـنـ تـدـاعـيـاتـهاـ ،ـ لأنـ فـكـرـ الـهـجـنةـ بـمـفـهـومـهـ الـعـامـ يـمـثـلـ (ـ ضـرـبـ مـنـ ضـرـوبـ الـمـجاـوزـةـ لـلـانـغـلـاقـ الـذـيـ يـنـهـضـ عـلـىـ فـكـرـ الـهـوـيـيـ ،ـ نـتـاجـاًـ لـحـرـكـاتـ تـنـاـقـفـ إـنـسـانـيـ وـنـمـطـ مـنـ فـضـاءـ الـحـرـ ،ـ عنـوانـهـ الـتـأـسـيسـ لـهـوـيـةـ عـالـمـيـةـ تـقـومـ عـلـىـ التـنـوـعـ)^٣ـ لـاـ إـلـغـاءـ الـخـصـوصـيـةـ كـمـ تـقـعـلـ الـعـوـلـمـةـ .ـ

إـنـ ثـانـيـةـ :ـ الرـفـضـ/ـالـانـغـلـاقـ وـ الـقـبـولـ/ـالـانـفـتـاحـ ،ـ هـيـ أـسـ كـامـنـ فـيـ الـمـجـتمـعـاتـ نـابـعـةـ مـنـ التـنـوـعـ الـاجـتمـاعـيـ الـثـقـافيـ ،ـ وـلـطـالـمـاـ شـكـلـ التـنـوـعـ نـقـطةـ اـنـطـلـاقـ أـسـاسـيـةـ فـيـ الـأـدـبـيـاتـ السـيـاسـيـةـ وـخـطـابـاتـ الـسـلـطـةـ .ـ لأنـهـ بـالـأـسـاسـ يـمـثـلـ الـمـشـكـلـةـ الـجوـهـرـيـةـ لـدـىـ

^١ يـنـظـرـ :ـ تـأـمـلـاتـ حـولـ الـمـنـفـيـ وـمـقـالـاتـ أـخـرىـ /ـ إـدـوارـدـ سـعـيدـ :ـ ٢١٦ـ -ـ ٢١٨ـ .ـ

^٢ إـدـوارـدـ سـعـيدـ :ـ الـهـجـنةـ ،ـ السـرـدـ ،ـ الـفـضـاءـ الـإـمـبرـاطـوريـ /ـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـأـكـادـيـمـيـينـ الـعـربـ :ـ ٣٨ـ .ـ

^٣ المـصـدرـ نـفـسـهـ :ـ ٧١ـ

علماء الانثربولوجيا حينما كان سؤالهم الأساسي : كيف نترابط مع بعضنا البعض ؟ إذ إنَّ التنوع البديهي في الحياة الاجتماعية للبشر يقود بالتأكيد نحو تنوع ثقافي كبير أي تباين اجتماعي وثقافي ، إنَّما هذا لا يعني حتمية الانغلاق للجماعة البشرية الواحدة واستحالة الانفتاح بين الجماعات متباعدة الثقافات ، إذ لم يقطع علماء الانثربولوجيا بعدم وجود طبيعة بشرية أساسية مشتركة وذلك استناداً منهم لنظريات النوع والجنس البشري ^١ . فإذا كان الاعتقاد السائد بأنَّ الجماعات البشرية : أفارقة ، وأسيويين ، وأوروبيين هي جماعات نشأت عن تطور أصول وأنواع مختلفة فيما بينها ، فإنَّ الدراسات الحديثة في علم الوراثة تقول ؛ إنَّ السمات الجسدية – التي تصنف الجماعات البشرية غالباً على أساسها – هي سمات ثانوية جداً لا ترتفق لأنَّ تدعم تلك التصنيفات لأنَّها ليست سمات تشريحية ولو أنَّ البشرية حافظت على الزواج المختلط أي الزواج خارج المجموعة البشرية لاختفت مثل هذه الفروقات الظاهرة (الجسدية) بين الأمم ومن ثم اختفت مفاهيم العِرقية ، ذلك أنَّ البشر في النهاية بحسب الحقائق العلمية يتلقون عند خطوط الأصل المشترك ، بل أنَّ المفارقة الأشد غرابة هي النتيجة العلمية بحسب علماء الجينات والوراثة القائلة بأنَّ المعلومات الجينية والكريونولوجية بشكل يكاد يجمع عليه علماء الوراثة تشير إلى أنَّ أفريقيا هي أصل الإنسان الحديث وأنَّ جميع البشر اليوم ينحدرون من أصل واحد ، وهو الإنسان القديم في أفريقيا الذي عاش قبل مئة وعشرين ألف إلى مائتين واثنين وعشرين ألف عام ^٢ . إذن أنَّ كان الاختلاف موجوداً - استناداً إلى الفروقات الثقافية والسمات الجسدية - فالانفتاح موجود أيضاً استناداً إلى الأصل المشترك والأصل الإنساني هو المهم .

إنَّ مفهوم الهجنة قائم على ركيزة أساسية يغفلها خطاب الهوية ، وهذه الركيزة هي : الإنسانية ، فالهجنة تضع الإنسانية الإنسان أولوية مهمة لتأسيس خطاب التعايش بين طرفي الاختلاف الثقافي في الوقت الذي لا يعبأ فيه خطاب الهوية لهذا الأسلوب وذلك ببساطة كونه خطاباً مُنتجاً بتدخل سياسي ، إذ كل ("هوية" جاءت نتيجة " فعل سياسي أصلي") ^٣ فلم تترك بوصفها تراكم انثربولوجي تفرزه المجتمعات ، والسبب لأنَّها سلاح فاعل وورقة رابحة للسياسات المتطرفة بالضرورة .

^١ ينظر: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ؟ الثقافات البشرية : نشأتها تنوعها / مايكيل كاريذرس : ١٨ و ٢٠ و ٢١ .

^٢ ينظر : أصل الإنسان وتاريخه / نادر قريط ، مجلة الأولان ، منشورة بتاريخ : ٢٠١٠/٧/٢٥ .

^٣ وينظر : الجنس البشري أصله من أفريقيا ، دراسة منشورة في موقع بي بي سي أونلاين .

^٤ إدوارد سعيد : الهجنة ، السرد ، الفضاء الإمبراطوري : ٣٣ .

ولو تأملنا القضية الفلسطينية بوصفها القضية الأكثر إشكالية وقدماً في الواقع العربي السياسي ، لوجدنا إدوارد سعيد صاحب الحس الوطني تجاه الحق الفلسطيني وصاحب الحس الإنساني تجاه اليهود شعباً في الوقت نفسه ، يرى في الهجنـة الثقافية هي الحل أو المشروع الوحيد لتقديم السلام كونه يؤسس لمفهوم الأرض الواحدة دون الدولة الواحدة ، بوصفها - أي الهجنـة - تعرـض فكرة التعايش السلمي باعتبار " الإنسانية " لا بإغفالها ، فيقبل ذلك المـفكـرـ الفلسطيني (فـكـرةـ الـدولـتينـ الـقومـيتـينـ فيـ اـنتـظـارـ الـهـجـنـةـ الـثـقـافـيـةـ الـتـيـ تـؤـسـسـ لـحلـ الـدـوـلـةـ الـواـحـدـةـ ،ـ وـيـؤـمـنـ بـحـتـمـيـةـ السـلـامـ مـعـ إـسـرـائـيلـ)^١ علينا هنا توخي الدقة في التقطـاطـ المرـادـ منـ ذـلـكـ :ـ فـيـكـونـ السـلـامـ مـعـ إـسـرـائـيلـ بـوـصـفـهاـ ثـقـافـةـ مـخـلـفـةـ لـإـنـسـانـ ،ـ لـاـ بـوـصـفـهاـ حـدـودـ أـطـمـاعـهاـ ،ـ فـتـكـونـ حـيـنـهاـ فـكـرةـ التـعـاـيشـ السـلـمـيـ حـلـلـاـ ذـاـ قـبـولـ بـيـنـ ثـقـافـتـيـنـ مـتـبـاـيـنـتـيـنـ لـكـلاـ الشـعـبـيـنـ ،ـ بـدـلـاـ مـنـ حـدـودـ دـوـلـتـيـنـ ثـجـهـضـ الـأـقـوـىـ مـنـهـمـاـ كـلـ مـلـحـ إـنـسـانـيـ ،ـ أـيـ أـنـ سـعـيـدـ كـانـ مـؤـمـنـاـ بـشـدـةـ بـحـقـ الـفـلـسـطـيـنـيـنـ بـالـعـوـدـةـ إـلـىـ أـرـضـهـمـ غـيرـ أـنـهـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ يـرـفـضـ اـقـتـلـاعـ الـيـهـودـ شـعـبـاـ مـنـ الـأـرـضـ الـتـيـ يـعـيـشـونـ عـلـيـهـاـ ،ـ فـهـوـ يـؤـمـنـ مـؤـقـتاـ بـحـلـ الـدـوـلـتـيـنـ الـقـائـمـيـنـ عـلـىـ أـسـاسـ الـهـوـيـةـ الـقـوـمـيـةـ إـلـىـ أـنـ تـشـيـعـ ثـقـافـةـ الـهـجـنـةـ فـيـ الـمـجـتمـعـيـنـ الـتـيـ بـدـورـهـاـ سـتـعـبـرـ بـرـوـيـةـ كـلـ مـنـهـمـاـ الـحـوـاجـزـ الـهـوـيـاتـيـةـ وـصـوـلـاـ لـلـمـعـنـىـ إـنـسـانـيـ وـعـنـدـئـذـ سـيـكـونـ الـمـجـتمـعـيـنـ قـادـرـيـنـ عـلـىـ إـنـتـاجـ طـبـقـةـ سـيـاسـيـةـ وـمـؤـسـسـاتـ سـيـاسـيـةـ تـقـومـ عـلـىـ أـسـاسـ الـهـجـنـةـ ،ـ مـاـ يـعـنـيـ نـشـوـءـ سـلـطـةـ هـجـيـنـةـ لـيـسـ فـيـهـاـ غـلـبـةـ لـلـوـنـ الـيـهـودـيـ أـوـ الـفـلـسـطـيـنـيـ بـدـلـاـ مـنـ مـؤـسـسـةـ سـيـاسـيـةـ قـومـيـةـ عـنـصـرـيـةـ كـمـاـ هـيـ عـلـيـهـ إـسـرـائـيلـ الـيـوـمـ .ـ

بينما حين يغفل الخطاب الهويـاتـيـ عنـصـرـ الإنسـانـيـ فهوـ بـالـضـرـورـةـ يـفرـزـ سـيـاسـاتـ لـإـنـسـانـيـةـ أـهـمـهـاـ سـيـاسـةـ رـفـضـ الـآـخـرـ ،ـ وـمـنـ ثـمـ يـجـرـ الـآـخـرـ وـرـائـهـ الغـايـاتـ السـيـاسـيـةـ السـاعـيـةـ -ـ عـبـرـ نـبـذـ الـمـخـلـفـ وـإـقصـائـهـ وـإـشـعـارـهـ بـالـدـوـنـيـةـ -ـ نـحـوـ الـهـيـمـنـةـ أـوـ عـلـىـ الـأـقـلـ فـرـضـ الذـاتـ ،ـ إـذـ إـنـ سـيـاسـاتـ التـكـتلـ أـوـ الـهـوـيـةـ بـلـحظـاتـهاـ الشـوـفـيـنـيـةـ قـادـرـةـ أـنـ تـكـوـنـ الـحـاضـنـةـ الـمـثـلـىـ لـرـغـبـاتـ الـهـيـمـنـةـ ،ـ وـعـلـىـ وـفـقـ خـطـابـ الـهـوـيـةـ يـكـونـ (ـ كـلـ اـمـرـءـ هـوـ أـسـاسـاـ وـعـلـىـ نـحـوـ لـاـ يـقـبـلـ الـاخـتـزالـ عـضـوـاـ فـيـ عـرـقـ أـوـ صـنـفـ معـيـنـ ،ـ وـأـنـ هـذـاـ عـرـقـ أـوـ الصـنـفـ لـاـ يـمـكـنـ أـبـداـ أـنـ يـسـتوـعـبـ فـيـ الـأـعـرـاقـ أـوـ الـأـصـنـافـ الـأـخـرـىـ أـوـ يـقـبـلـ لـدـيـهـاـ إـلـاـ كـمـاـ هـوـ)^٢ لـاـ عـلـىـ أـسـاسـ إـنـسـانـيـتـهـ ،ـ فـهـوـ يـعـاـمـلـ عـلـىـ أـسـاسـ صـنـفـهـ أـوـ عـرـقـهـ أـيـ هـوـيـتـهـ ،ـ هـوـيـةـ قـوـمـيـةـ كـانـتـ أـوـ دـيـنـيـةـ أـوـ طـائـفـيـةـ .ـ

^١ إـدـوارـدـ سـعـيـدـ :ـ الـهـجـنـةـ ،ـ السـرـدـ ،ـ الـفـضـاءـ الـإـمـبـراـطـوريـ :ـ ١٣ـ .ـ

^٢ تـأـمـلـاتـ حـولـ الـمـنـفـيـ /ـ إـدـوارـدـ سـعـيـدـ :ـ ٢١٦ـ .ـ

يمكن التسليم بأنَّ المعنى الإنساني هو اللبنة الأساسية التي لا ينهض صرح التعايش السلمي بين أفراد مجتمع متعدد الثقافات والأعراق دون اعتبار كينونته ، بوصفه جوهر الفرد ، وقوام كل ثقافة أو طائفة أو مذهب أو عرق .. فهل من السهل تطبيق الهجنة مشروعًا بديلاً ل الواقع الراهن المتمثل بالسياسة القمعية للهوية – حين تكون قائمة وحدها - إن لم نسمها سياسة قاتلة ؟ هل يمكن أن تتقبل المجتمعات – أفراداً وحكومات – هذا البديل ؟ أم أن الهجنة هي المشروع المستقبلي شاءت أم أبت هذه المجتمعات فهي سائرة نحوه وإن كان سيراً وئيد الخطى .

ربما في مرحلة سابقة ومرحلة "ما قبل ثورات الربيع العربي" التي شهدتها المنطقة – لو أردنا أن نخص دول العالم العربي في الحديث - كان هناك كثير من القيود التي تعرقل مسار العقل تمرداً على ثوابته التي تقف عائقاً أمام إنسان الهجنة ، سواء كانت قيوداً فكرية تتعلق بمقولات ذات جذور تاريخية عن الهوية ، أم قيوداً مادية ملموسة تتمثل بارتباط الفرد بالمكان الذي يعيش فيه ، وهي قيود ترتبط ارتباطاً مباشراً بمفهوم الثقافة ، أي ثقافة الجماعة ، سواء فيما يتعلق بثقافتها عن مفهوم الهوية بما تتطوّي عليه من ثوابت كالأصل والتاريخ اعتدالاً ، أم ثقافتها حول العلاقة بالمكان ومدى أهميتها بالنسبة للفرد ، أمّا اليوم مع ما يحدث من عنف ناتج عن سياسات الهوية المتطرفة ، فضلاً عمّا تفرضه العولمة وما يشهده الواقع من متغيرات مفاهيمية مصاحبة لها – فيما يتعلق بمفهوم الوطن تحديداً – التي تمّحضت عنها فكرة "التحرر المكاني" للثقافة ، تلك التي تظهر بـ (الانتقال المستمر والمكثف للأفراد والمجموعات من مكان لآخر في عالم اليوم)^١ التي - لو أردنا تسميتها – لا يمكن أن نكتفي بكلمة هجرة ، إنّما يمكن أن نقول هجرة قسرية أو نزوح قسري تلك التي تدفع الأفراد والجماعات نحو إنتاج إنسان الهجنة سعياً وراء العيش الآمن ، فالمجتمعات هنا برغبة أو بدونها فهي سائرة نحو إنسان الهجنة ، ذلك الإنسان الذي لا يرفض أي ثقافة ولا ينغلق على أي ثقافة ، الذي يجده إدوارد سعيد في مقولته الراهب " هوغو سان فكتور " من القرن الثاني عشر الميلادي (الإنسان الذي يجد وطنه أثيراً لم يزل غرّاً طريّ العود ، أمّا الذي يرى موطنه في كل مكان فقد بلغ القوّة ، غير أنَّ المرء لا يبلغ الكمال إلا إذا عَدَ العالم بأجمعه أرضاً غريبة عليه)^٢ أي إنّه الإنسان الذي لا يتعصّب لأي ثقافة أو مكان وإن كان متمسكاً بمفردات هويته الأولى ومقولاتها التي نشأ عليها ولمكانه الأول الذي ولد فيه ، إلا إنَّ هذا التمسُّك والانتماء لا يؤثران على إحساسه تجاه الثقافات المختلفة والأماكن الأخرى ، الإحساس الذي لا يستهجن

^١ كيف يتتطور مفهوم الثقافة استجابة لتحديات العولمة / هديل غنيم ، مجلة الأهرام الديمقراطية ، منشوره بتاريخ ٢٠١٤/٦/٢٦ .

^٢ إدوارد سعيد : الهجنة ، السرد ، الفضاء الإمبراطوري : ٧٨ .

الآخر ، لأنَّه ببساطة هجين الرؤى والأفكار ، ومن وجهاً نظر فلسفية يقودنا ذلك نحو إنسان الدازاين الهيدغرى .

إنسان الهجننة وعالم الدازاين

يعرض لنا هيدغر عبر فلسفته عن الوجود عالماً نحن بأمس الحاجة له اليوم – أو على الأقل التعرف عليه - بعد أن تفاقمت أحداث واقعنا وأصبحنا أسرى النداء الأول ، نداء الوجود ، أصبحنا نرژح تحت ثقل ما لا طاقة لنا بحمله وهو ما يمثل حياة الإنسان التي وجد نفسه فيها والتي يعبر عنها هيدغر بالنداء أو البعد الانثربولوجي للإنسان ، أما العالم الذي عرضه هيدغر فهو عالم الوجود الأصيل للإنسان عالم الدازاين بأصلنا الأول " إنسان الدازاين " .

فهذا البعد الانثربولوجي أو حياته التي وجد فيها ما هي – بحسب هيدغر – إلا " هرب " ناجم عن " قلق الموت " ؛ تلك النقطة أو الإمكانيات الحتمية على حد تعبيره ، وهذا بدوره يوصلنا إلى أنَّ القلق من هذه الإمكانيات الحتمية المستقبلية هو الذي يجعل الإنسان إنساناً على ما هو عليه في كل ما يفعله داخل حيز البعد الانثربولوجي ، لذا يمكن أن نقول إنَّ الوجود/الدازاين يلبي نداء وجوده/إنسان البعد الانثربولوجي ، أي إنَّ إنسان الدازاين ينحو نحو إنسان الإنسانية تلبية لضرورة الوجود التي يسميها النداء أو الصوت العفوياً الذي لا مناص من اتباعه ، لذا نخلص من ذلك إلى قول هيدغر " المنادي هو الدازاين القلق من وجوده المذوق " ، فيحاول هيدغر في حديثه عن النداء ، الكشف على ما يطراً على إنسان الدازاين/الوجود الأصيل بعد تلبيته ذلك النداء بوصفه نداءً معيناً بكل أشكال السلطة والقسر الاجتماعي لأنه مستمدًا من الكلام أي اللغة^١ ، واللغة برؤى جديدة يمكن أن تكون إيقونة التسلط والقيود التعبيرية فضلاً عن القيود الفكرية المُعَبَّر عنها باللغة أيضاً ، فهي وسيلة بإمكانيات هائلة من القدرة على صناعة مقولات تدعي الحقيقة وإن لم تكن كذلك ، لذا لم يتوان هيدغر عن الإشارة إلى فاعلية اللغة في جذب الإنسان من عالمه الأول نحو عالم الدلالات المموهة .

وهو ما يفسّر مقوله هيدغر " ليس نحن من يلعب بكلمات اللغة بل اللغة من يلعب بنا " مما إن ينساق الدازاين تلبية للنداء المتسلط حتى ينتج إنسان الإنسانية أو البعد

^١ ينظر : إنثربولوجيا الدازاين – قلب المفهوم التقليدي للكائن الإنساني / د. إسماعيل مهناة ، مجلة الكلمة ، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث ، العدد (٢٢) ٢٠١١ .

الانثربولوجي ، إنساناً مُخترقاً رازحاً لسلطة ما ، مغترباً – على حد تعبيره – عن وجوده الأول الأصيل النقي^١ .

فالإنسان إذن في هويته هذه ليس هو إنسان الدازاين الأول ، إنما هو المختلف المغترب عن وجوده الأصل ، وهو في أصله ليس ما هو عليه الآن إلا إنّ صرورات الوجود فرضت آنيته ، فأصبح أسيراً للنداء المتسلط الذي يجب علينا هنا تأمله ، فهو نداء لا يخلو من مقولات تجعلنا مسكونين دائمًا بهاجس الوجود والكينونة ، بما فيها مقولات الهوية بكل تبعاتها ، ومقولات الارتباط المكاني ليست آخرها ، فهل يمكن أن نقول أن المكان سلطة ! هل نحن أسارى لهذه الدرجة ... ربما ذلك مما جعل الراهن يرى بأنّ الإنسان لا يبلغ الكمال إلا إذا عَدَ العالم بأجمعه أرضاً غريبة عليه ، فهو يقصد الإنسان في وجوده الأول/ الدازاين المتحرر من كل أنواع القيود ، لا سلطة لهوية ولا لمكان ... وإن لم أكن أريد المغالاة ، ولست في صدد الدعوة للتخلّي عن الهوية بصورة مطلقة ، إذ لم يكن لمفهوم الهجنّة مبتغى من هذا النوع ، فندائها هو أن (يغدو الإنسان مواطناً عالمياً دون أن يفقد شيئاً من فرديته واستقلاله)^٢ إنما ونحن اليوم مسكونين بسلطة الهوية إلى حد قتل الآخر المختلف ، ربّما علينا المحاولة في أن نعكس آلية النداء الهيدغرى ونذهب في رحلة عودة نحو عالم الدازاين – ولو قليلاً – ونلقي عن كاهلنا كل قيود الوجود ، سعيًا نحو خلق إنسان الهجنّة الذي لا يتخلّى عن هويته لكنه في الوقت نفسه لا يرفض من يخالفه الهوية ، وهذا ما يمثل مفترق الطريق بين الهجنّة والعولمة أو إنسان العولمة .

المبحث الثاني : الجانب التطبيقي

نبذة عن رواية ”الحفيدة الأميركيّة“

لم يكن الأدب بمنجى عن خطاب الهوية المتعالي ، إذ يرى إدوارد سعيد إنّ كثير من الروايات المشهورة تتطوّي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على هاجس تلك الروح المتعالية ، أما موضوع بحثنا عن الهجنّة التفافية بوصفها الخطاب الذي يخفّ من حدة خطاب الهوية ، فإننا عبر محاولة استشرافية لمستقبل الإنسان مع الهجنّة ، وخلال نظرة فاحصة في النتاج الروائي للأدب العراقي ، قادنا البحث إلى رواية (الحفيدة الأميركيّة) للروائية العراقية إنعام كجه جي ، التي يمكن عدّها نصاً

^١ ينظر : المصدر نفسه .

^٢ إدوارد سعيد : الهجنّة ، السرد ، الفضاء الإمبراطوري : ٢٦ .

ثرياً بترميزاته وإشاراته على الرغم من بساطة الأسلوب ، وانسيابية الأحداث التي تميز بها النص فضلاً عن تقنيات قص بعد الحادثة التي سنأتي على عرضها تباعاً . إنَّ سبب وقوع الاختيار على هذه الرواية هي شخصية زينا/ الحفيدة الأميركيَّة ، لما توفر لهذه الشخصية من ظروف أتاحت لها أن تكون "شخصية الهجنة" في كثير من جوانبها فهي شخصية ذات عقلية جدلية أو مركبة ، فهي عراقية مسيحية ولدت وعاشت في العراق حتى عمر المراهقة ، ثمَّ هاجرت مع عائلتها إلى أميركا - أثر التعذيب الذي تعرض له والدها من قبل النظام الحاكم - واندمجت في ذلك المجتمع اندماجاً كلياً حتى دخول أميركا إلى العراق ، الحدث الذي كشف كثير من الجوانب المهمة في شخصية زينا ، جوانب تمثل ملامح إنسان الهجنة في تلك الشخصية ، وعبر تسليط الضوء على هذه الجوانب يمكن الكشف عن وجود "مفترق" مهم جداً يتمثل بالتغيير الخفي في شخصية إنسان الهجنة - العربي تحديداً - ذلك بوجود ملامح أخرى مناقضة للملامح الرئيسة لشخصية الهجنة .

لاماح الهجنة في شخصية النص

عبر التتبع الدقيق للشخصية الرئيسة في النص (زينا) يمكن أن نحدّد ملامح الهجنة لهذه الشخصية في النقاط الآتية :

١- **الجانب النفسي** : الذي يتمثل بدوافعها النفسيَّة المسؤولة عن توجيه سلوكياتها وقراراتها في الحياة . مثال ذلك : قرار الشخصية للتقديم للانخراط في صفوف الجيش الأميركي القائم لإطاحة النظام الدكتاتوري في العراق ، تقول : ((أعلنت "إف بي آي" عن حاجتها إلى مترجمين عرب ، وعنوان موقع لتقديم الطلبات ، قرأت الإعلان وشعرت بمزيج من الهشاشة والحماسة . ماذا في إمكاني أن أقدم لمساعدة بلدي في هذه المحنَّة ؟ بأي وسيلة تخدم مهاجرة مثلي ، لا حول لها ولا قوة ، دولة أميركا العظمى ؟))^١ لم يكن قراراً نابعاً من الرغبة في الحصول على المبلغ المغرِّي أجرًا لهذه الوظيفة فقط ، إنَّما تبلور في الأساس قبل علمها بمقداره أو دون التفكير المسبق به ، قراراً نابعاً من رغبتها بخدمة "بلدها" أميركا ، ومن ثمَّ تخليص بلد آخر من نظام حكم جائز بغض النظر إن كان الأخير هو وطنها الأصل أم لا ، تقول : ((إنني ذاهبة في مهمة وطنية جنديَّة أتقَّدم لمساعدة حكومتي وشعبي وجيشي ، جيَّشنا الأميركي الذي سيعمل على إسقاط صدام ويحرر شعب ذاق المر جنديَّة تسير في الساحة ... ترتدي بدلة قتالية وتتقدُّم في اتجاه الشرف الذي ينتظرها على مسافة حلم أو حلمين ، هناك في البلد الذي كانت فيه ولادتي . مساكين أهل العراق لن

يصدقوا أعينهم حين ستفتح على الحرية)^١ يمكن بعد ذلك أن نلحظ عدم الارتباط المكاني للشخصية لبلد معين هو الملمح الذي تتركز فيه هجنة هذه الشخصية ، إذ إنها لم تكن تشعر بمشاعر الارتباط أو الالتصاق بأحد البلدين دون الآخر بدليل أنها لدى ذهابها بين صفوف الجيش الأميركي كان بداعف تقديم خدمة لهذا البلد بوصفها مهاجرة رغبت بدعم بلدها "المأوى" امتناناً ، وفي نفس الوقت تقديم خدمة للبلد الذي ولدت فيه ، وهذا يشي بعدم انغلاق زينة على هويتها لأي من البلدين .

إن عدم الارتباط المكاني هذا ليس بالأمر الغريب على المهاجر ، ففكرة " التحرر المكاني " التي برزت مؤخراً بالانتقال المستمر للأفراد والجماعات من مكان لآخر ، أنتجت تيارات ثقافية عابرة للقوميات متمثلة بثقافة المهاجر التي يحملها من وطن لآخر ، الأمر الذي يمثل تحدياً كبيراً لمفهوم الارتباط المكاني للثقافة ومن ثم الأفراد ، وعلى الرغم من بديهيّة ارتباط الثقافة بمكان معين فإن ذلك لا يمنع قدرتها على الانتحال ، ومن ثم فإن الانفصال المكاني لا يعني اللامبالاة لمفهوم الوطن الأصل إنما كل ذلك يكون بمثابة هوية جديدة أو ثقافة جديدة تظهر عبر ثقافة أو هوية المهاجر . فمفهوم الوطن ممكن أن يتبلور متى ما شعر الإنسان بأنه ليس بحاجة لتقدير المبررات والتفسيرات لأفعاله وسلوكياته ، أي بوجود التفهم والانسجام مع المحيطين ، وهو ما أطلق عليه فنسنت ديلوج بـ " الوطن المجازي " دون " الوطن الجغرافي " ، وعلى ذلك يكون مفهوم (الوطن) – بالنسبة للمهاجر المنسجم مع محيطه – موجوداً في أي مكان^٢ . فنجد (زينا) ذات ثقافة عابرة للحدود ، وفي الوقت نفسه لم يخلق لديها انفصالتها المكاني والثقافي لامبالاة تجاه " الوطن " إنما هي فيما فعلته تسعى لتقديم الخدمة لكلا البلدين لكن ضمن إطار ثقافتها الجديدة أو هويتها بوصفها مهاجرة ، ليس ولاً لأحد منهما ، الأمر الذي يقودنا نحو مفهوم " الوطنية" الذي سنتحدث عنه ضمن الجانب الثقافي الذي يمثل الملمح الثاني من ملامح الهجنة في شخصية (زينا) .

٢- **الجانب الثقافي :** إنَّ من ملامح إنسان الهجنة هو عدم تمثُّله للمفاهيم المتفرّعة عن الهوية ، التي تتمثَّل بـ (مشاعر الوطنية) أو (مشاعر الحنين إلى الوطن) أو (الرؤية للهجرة) مشاعر تشير إلى تمسُّك الإنسان بهوية معينة أو هويته الأولى أو قد توصله إلى حد الانغلاق عليها . إلاَّ أنَّ شخصية النص (زينا) ليست من هذا النوع ، تقول : ((كيف تكون المشاعر الوطنية؟ خزعبلات لم تكن تعني لي الكثير ،

^١ الرواية : ١٨ .

^٢ ينظر : كيف يتتطور مفهوم الثقافة استجابة لتحديات العولمة / هديل غنيم : ١ و ٣ .

لا في طفولتي العراقية ولا في شبابي الأميركي))^١ لم تكن زينا تشعر بوطنية تجاه أحد البلدين إذ لم تكن منغلقة على أي من الهويتين اللتين شكلتا ثقافتها . كذلك في حديثها عن مشاعر الحنين إلى الوطن تقول عن والدتها - سخرية - التي طالما تسمع أغنية (الهجر مو عادة غريبة .. لا ولا منك عجيبة) وتبكي دون انقطاع : ((من الخطأ بيع هذا الشريط لوحده ، لا بد من بيع " ماسحات عيون " مثل ماسحات الزجاج معه ، تشيح بوجهها عنى وتواصل الغناء مع الكاسيت " كلمن يسوقه حليبي .. كلمن يردّه حليبي " ، لم يرثني حليبي إلى بغداد ، سلختني منها الكارثة وأعادتني إليها الكارثة ، فمن له الحق في حسابي ؟))^٢ فلم تكن زينا تشعر بحنين إلى الوطن طالما تعيش حياة رغيدة في أرض توفر لها ذلك عجز الوطن الأول عنها ، بغض النظر عن الأسباب فالشعور بحد ذاته هو حياد وإن احتفظت بذكريات أو بقايا هوية إلا إن هذه الأشياء عجزت عن خلق مشاعر حنين لديها فإنسان الهجرة ليس بالضرورة كائن عديم الهوية إنما هو يحتفظ بها دون أن تسبب له إشكالات في التعايش مع الآخر . أما ملمح الهجرة المهم في ثقافة (زينا) فهو يظهر عبر رؤيتها للهجرة خلال حديثها مع (مهيمن) - ابن مربيتها (طاووس) أيام طفولتها العراقية - حول مفهوم الوطن الثاني ، تقول : ((يعجب مهيمن للقادرين متى على الاستقرار في الهجرة ، يسمينا " الذين يغيرون جلودهم " لا تعجبني أحكامه القاطعة . أحتاج : ليس لي غير جلد واحد ، لكنه بعدة ألوان . يقول : إسمك زينة وليس حرباء ، أمّا أنا فلا أعرف سوى الوطن الأم ، لا يمكنني أن أتصوّر الوطن الخالة أو الوطن العمة ، أشدّ ما يثير سخريتي تعبير " وطن ثانٍ " . تحبيه : يمكن للعالم أن يكون وطناً ، ألم تسمع بمصطلح " المواطن العالمي "))^٣ إنها محاورة بين (الهوية) وبين (الهجرة) ، زينا لا ترى في الهجرة تغيير جلد إنما هو جلد واحد بألوان متعددة ، أي مع الاحتفاظ بالهوية هناك قدرة على التعايش مع الآخر المختلف ، هي تنطلق من ثقافة الإنسان العالمي ، وهو ينطلق من مفهوم الوطن الأم فرق شاسع بين الثقافتين ، ثقافة الهجين وثقافة الهوسي الذي يتحدر من فكر آيديولوجي - فهو شيوعي سابقًا وإسلامي من بعد - انعطافات فكرية حادة في شخصية مهيمن من البديهي أن تختلف فكرًا هووياً ربما يصل به حد التطرف .

٣- **الجانب العاطفي** : من جانب آخر يمكن أن نلمس مواطن الهجرة في شخصية (زينا) عبر تأمل الجانب الإنساني لديها ، فحينما التقت زينا بـ (مهيمن) ، الفتى المتعصب دينياً والكاره للوجود الأميركي بوصفه احتلال ، فقد شعرت تجاهه بعاطفة

^١ الرواية : ١٩ .

^٢ الرواية : ١٣٢ .

^٣ الرواية : ١٤٤ .

لم تتمكن من إنكارها لأنّها لم ترفضها بل أحببت أن تعيش لحظاتها مُطلقة لنفسها العنان رغم أنها مرتبطة بعلاقة مع شاب أمريكي ، تقول : ((حرك مهيمن تيارات داخلية في روحي ، ولم أكن صغيرة ولا بالسذاجة التي تجعلني أُعشق رجلاً من النظرة الأولى ، لكن اسمه كان فخاً جميلاً منصوباً بدون قصد ... أحببت اسمه قبل أن أحبه ، كان هو الشخص الذي سحبني إلى توتر شخصيته وإسلوبه الخاص في الكلام ، شخص نسيج وحده))^١ ، لو تأملنا ميل مشاعر زينا للرجل الغربي ، ومن ثم ميل مشاعرها للرجل الشرقي مع الأخذ بالنظر الفارق الجذري بين الشخصيتين يمكن أن نلاحظ جلياً قدرة زينا على التعايش مع طرفي نقيض الثقافة المتمثلة بثقافة كل من (مهيمن) العراقي و (كافن) الأميركي ، فقد أحببت زينا "المسيحية" المنفتحة الهوية مهيمن "المسلم" المتعصب دينياً ووطنياً هوبياتياً ، فهي لا ترى في اختلاف الأديان عائقاً كما يرى ذلك مهيمن ، لأنّها لا تعباً بفكرة "الاختلاف" بسبب أنّ أنس الإنسانية الذي تتعامل على أساسه زينا لا يضع الحاجز والفرقـات كما تضعها الهوية أو الأيديولوجيات أو الديانات المصنعة بشرياً ، لذلك نجدها تقول عن منطق مهيمن في الحياة : ((لم أتعود أن أسمع رجلاً يستخدم تعبير القسمة والنصيب والحظ والقدر والمكتوب ، كلمات ترددّها أمي وجدّي وطاووس ، ألفاظ مدسورة على سعادتي ، لا وظيفة لها سوى أن تُجهض الآمال وتبني جدراناً أمام الجموح))^٢ فهو يضع باعتباره الاختلافات العقائدية بينهما فضلاً عن الهوية ويعزو كل ذلك للأقدار والنصيب .

هنا يمكن أن نقول إن هذه الجوانب هي الملامح الأساسية للهجنـة في شخصية زينا التي تمكنا من القول إن زينا هي إنسان هجنة ، إلا أن هناك جوانب أخرى لا بد من تسلیط الضوء عليها بوصفها الوجه الآخر لهذه الشخصية وعبر كشفها تتضح الرؤية أكثر .

الجانب الآخر من الشخصية : ملامح بقایا هوية

يمكن أن نكشف الوجه الآخر لشخصية (زينا) ضمن نقاط حددناها عبر رصد بعض المواقف التي كشفت الجانب المغايـر لما تحدثنا عنه سابقاً من ملامح هجنة ، تتمثل هذه النقاط في الآتي :

- 1 - إحساسها بالحزن لدى دخولها العراق ، تقول : ((ديل ... ديل ... ديلاني ، بعشيقـة وبأحزاني ، تهزّني جدتي جيئة وذهاباً بعد أن تجلسني بمواجهتها في حضنها ...

^١ الرواية : ١٢٧ .

^٢ الرواية : ١٢٩ .

محفوظات متوازنة من أيام الموصل والبيت الحجري القديم ... بيت جدي جرجس الساعور ... أخذوني يوما إلى هناك وأنا صغيرة ... أحبيب أقارب الموصليين ذوي الشعور اللامعة .. كانوا يزوروننا في عيد الميلاد ... تذكرت الترنيمة ونحن في الرتل الذي قطع بنا الطريق الممتدة من الموصل^١) يقطة الذكريات ، والحنين لأيام الطفولة وبواكير الصبا بمجرد مرور الرتل العسكري الأميركي في نفس الطرق التي احتضنت أيامها الأولى ، هذا جانب ومن جانب آخر تقول : ((مررنا ببعشية فوقفت الفتيات أمام البيوت ينظرن إلينا ... لم يكن على وجههن ما يكشف عن نوع مشاعرهن ، لكن أيّاً منها لم تكن تتسم أو تلوّح بمنديلها مع ما كان في خيالي من مشاهد لأفلام أميركية عن الحرب العالمية الثانية ... مررنا برجال ذوي شوارب كثيفة ... يرمقون رتلنا بنظرات من نار ... كنت أريد أن اتباهي أمامهم بأنني منهم سلالة منطقهم ... لكن كل ذلك كان مخالفًا للتعليمات ، إن كلامي ثرثرة ممكّن أن تعرّضني ورفافي للخطر ، والتعليمات تريدني خرساء لذلك تصايبت للمرة الأولى من بزّتي العسكرية التي تعزلني عن الناس ... علىَّ أن أكون ابنتهم وعدوّتهم في آن ، وأن يكونوا هم أهلي وخصوصي^٢) لم تكن زينا تتوقع كل هذا النوع من المشاعر ، فقد كرهت بزتها العسكرية بمجرد أن حالت بينها وبين مواطنها الأصل ، مواطنى الهوية الأولى ، والأكثر هي نظرة التوجس والحدق التي لمحتها بأعينهم بوصفها محنة لا محرّرة - إذ لم يكن العراقيون جميعهم راضين للدخول الأميركي إنما اقتصر ذلك الأمر تقريبا على سكان المناطق الشمالية والجنوب بوصفهم الأكثر تعرضًا للإضطهاد من قبل الدكتاتور بسبب الرؤية الطائفية التي عولوا بها ، لذلك كانت هناك مناطق رافضة للدخول الأميركي - فيقطة الذكريات وحنينها لها ، والصدمة بضرورة التزامها موقف الابتعاد عن الأهالي فضلاً عن نظرتهم لها ، كل هذه الأسباب لم تكن زينا قد وضعتها في الحسبان ، لذلك تقول : ((من يومها بدأت أعي إصابتي بأعراض داء الشجن واتعايش معه ولا أبحث له عن دواء ، كيف أقاوم الداء الذي أعاد إنجابي ، وهدهدني ، وكبرني ، ورباني ، وأدبني فأحسن تأديبي^٣) "داء الشجن" هذا الشعور بحد ذاته قد يمثل إحساس "انتفاء" ، إحساس كامن لدى (زينا) ما إن تهيأت له الظروف حتى تفجر بداخلها مُخْلِفاً الشجن . فإنّسان الهجهنة رغم احتفاظه بهويته الأصل إلا إنّها لا تسبب له القلق ، ولا تؤثّر على مسار حياته بشئ لأنّه ببساطة يتقبّل المُختلف إنساناً ومكاناً بل يرى العالم كله غريب عنه ، أما وقد وصل شعور زينا إلى مستوى أن يكون "داءاً" غير كثير من أفكارها ، ومسار حياتها ، ورؤاها للأشياء ، ونظرتها للحياة عامة ، هذا يعني أنّه لازال هناك جانبًا من

^١ الرواية: ١٤، ١٣، ١٢.

^٢ الرواية: ١٥، ١٤.

^٣ الرواية: ١٥.

شخصية زينا غير منصهر في بوتقة الهجنـة ، فضلاً عن أنها لا تريد أن تتخلص من داء الشجن هذا ، لأنها تراه قد أعادها إلى رشدـها إنـها فرحت به وتلذـت بأسـاه ، أنجـبـها من جـديـد ، وأـحسـنـ تـأـديـبـها - تـلـيـة لـصـرـخـة الـهـوـيـة الـلـاشـعـورـيـة بـداـخـلـها - فقد أـحـبـتـ المـرـأـةـ الجـديـدـةـ التيـ أـصـبـحـتـ عـلـيـهـاـ "ـ إـمـرـأـةـ الـهـوـيـةـ الـأـصـلـ"ـ تـقـولـ : ((ـ لـوـ كـانـ الشـجـنـ رـجـلـاـ لـمـ قـاتـلـهـ بـلـ لـدـعـوتـ لـهـ بـطـولـ الـعـمـرـ ،ـ كـيـفـ تـمـكـنـ هـذـاـ الإـحـسـاسـ الـمـخـاتـلـ أـنـ يـصـقـانـيـ وـيـشـدـبـ نـزـقـيـ الـذـيـ كـانـ طـبـعـاـ فـيـ ،ـ كـيـفـ صـرـتـ أـرـىـ الدـنـيـاـ وـمـنـ فـيـهـاـ بـلـونـ آـخـرـ ...ـ حـتـىـ ضـحـكـتـيـ تـغـيـرـتـ ...ـ بـائـسـةـ أـنـاـ ...ـ أـضـحـكـ منـ قـشـرـةـ الـقـلـبـ بـايـجازـ وـبـلـ كـثـيرـ حـبـورـ ...ـ وـيـشـيـ بـالـهـزـةـ الـتـيـ حـدـثـ لـيـ مـنـذـ أـنـ عـدـتـ مـنـ بـغـدـادـ خـرـقـةـ مـعـصـورـةـ ...ـ أـقـرـأـ بـأـنـيـ عـدـتـ مـقـهـورـةـ مـحـمـلـةـ بـحـصـىـ الـشـجـنـ ...ـ لـكـنـيـ أـحـبـ شـجـنـيـ هـذـاـ ...ـ شـجـنـيـ الـجـمـيلـ الـذـيـ يـشـعـرـنـيـ بـأـنـيـ لـمـ أـعـدـ إـمـرـأـةـ أـمـيرـكـيـةـ عـادـيـةـ بـلـ إـنـسـانـةـ مـنـ مـنـعـ آـخـرـ بـعـيدـ وـمـوـغـلـ فـيـ الـقـدـمـ ،ـ تـطـوـيـ الـيـدـ عـلـىـ جـمـرـةـ حـكـاـيـةـ تـنـدرـ مـثـلـاتـهـ))^١.ـ رـبـماـ تـكـونـ هـذـهـ حـكـاـيـةـ هـيـ حـكـاـيـةـ الـهـوـيـةـ ،ـ تـلـكـ السـرـدـيـةـ الـرـاسـخـةـ فـيـ الـمـتـخـيـلـ الـإـنـسـانـيـ .

٢-ـ فـيـ حـدـثـ آـخـرـ نـلـحظـ اـسـتـيـاءـ زـيـنةـ مـنـ مـزـاحـ زـمـلـاءـهـاـ الـجـنـودـ الـأـمـيرـكـانـ فـيـ مـحاـولـتـهـمـ تـمـثـيـلـ مـرـاسـيمـ عـاـشـورـاءـ ،ـ إـذـ أـظـهـرـتـ رـدـاـ قـاسـ مـعـهـمـ عـبـرـ عـرـضـهـاـ عـلـيـهـمـ تـمـثـيـلـ حـرـكـاتـ الـمـصـلـيـنـ أـمـامـ حـائـطـ الـمـبـكـىـ ،ـ تـقـولـ : ((ـ رـأـيـتـ شـوـنـ وـهـامـلـتوـنـ وـبـيلـ يـتـسـلـوـنـ بـأـدـاءـ فـصـلـ تـمـثـيـلـيـ ،ـ وـسـطـ حـشـدـ مـنـ الـمـجـنـدـاتـ وـالـمـجـنـدـيـنـ الـذـيـنـ يـقـهـقـهـوـنـ بـأـصـوـاتـ صـاخـبـةـ ...ـ كـانـ الـأـوـلـ يـحـمـلـ مـضـرـبـ بـيـسـبـولـ وـيـوجـهـ عـمـودـيـاـ إـلـىـ جـبـهـتـهـ وـالـآـخـرـ يـولـولـ وـهـوـ يـرـفـعـ يـدـهـ الـيـمـنـيـ وـيـهـوـيـ بـهـاـ إـلـىـ صـدـرـهـ فـيـ إـيقـاعـ مـنـظـمـ ،ـ أـمـاـ ثـالـثـهـ فـكـانـ يـقـزـ فـيـ مـكـانـهـ وـهـوـ يـكـرـرـ "ـ هـيـداـ ...ـ هـيـداـ ...ـ "ـ ...ـ فـهـمـتـ أـنـ بـيلـ كـانـ يـصـرـخـ "ـ حـيـدـرـ ..ـ حـيـدـرـ "ـ ...ـ لـاـ أـدـريـ مـاـ دـهـانـيـ ،ـ فـالـمـزـحـةـ تـبـقـيـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـأـمـرـ مـجـرـدـ مـزـحـةـ ...ـ تـعـالـ يـاـ شـوـنـ نـؤـدـيـ تـمـثـيـلـيـ الـمـصـلـيـنـ أـمـامـ حـائـطـ الـمـبـكـىـ ...ـ مـثـلـ الـلـعـبـ الـأـوـتـومـاتـيـكـيـةــ تـطـلـعـ الـجـمـيعـ نـحـوـيـ باـسـتـغـارـابـ ...ـ كـنـّـاـ نـمـزـحـ ..ـ أـنـتـ مـعـهـمـ أـوـ مـعـنـاـ ؟ـ -ـ لـسـتـ مـعـ الـحـمـقـيـ))^٢ـ لـمـ تـكـنـ "ـ زـيـناـ الـهـجـنـةـ"ـ هـيـ مـنـ صـرـخـتـ بـالـجـنـودـ إـنـماـ "ـ زـيـناـ الـعـرـاقـيـةـ"ـ هـيـ الـمـسـؤـلـةـ عـنـ ذـلـكـ ،ـ زـيـناـ الـتـيـ أـعـادـتـهـ الـظـرـوـفـ إـلـىـ هـوـيـتـهـ الـأـوـلـىـ ،ـ حـيـثـ نـشـأـتـ فـيـ هـذـاـ الـمـكـانـ وـاعـتـادـتـ ثـقـافـةـ أـبـنـائـهـ مـنـ مـرـاسـيمـ وـطـقـوـسـ وـشـعـائـرـ دـيـنـيـةـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ كـوـنـهـاـ لـيـسـتـ مـسـلـمـةـ ،ـ إـلـاـ إـنـ بـقـاـيـاـ ثـقـافـهـاـ الـعـرـاقـيـةـ اـمـتـعـضـتـ مـنـ مـجـرـدـ مـزـحـةـ أـمـيرـكـيـةـ ،ـ اـنـتـفـضـتـ وـطـنـيـةـ زـيـناـ فـلـمـ تـمـكـنـ مـنـ إـخـافـهـاـ ،ـ وـلـوـ تـأـمـلـاـ هـذـهـ الـمـشـاعـرـ فـلـاـ نـجـدـهـ إـلـاـ بـقـاـيـاـ هـوـيـةـ عـصـيـةـ عـلـىـ التـهـجـينـ .

^١ الرواية : ٩ ، ١٠ ، ١١ .

^٢ الرواية : ١١٩ .

٣- كذلك نجد انغلاق هوبياتي لدى الشخصية عبر ما نلحظه من ميلها لتفاصيل دقيقة في المجتمع الشرقي متمثلة بظاهرة (التحرش) التي تتعرض لها النساء الشرقيات عامة ، تقول وقد تخفّت بالعبارة العراقية لكي تتمكن من الوصول إلى بغداد قادمة من الموصل لرؤيه جدتها : ((سمعته يقول وهو يجتازني : - شلون عين ؟ ... تقره وتكلب ! يا الله ! كدت أدور على عقبي وأجري وراءه وأتوسل إليه أن يُسمعني المزيد من تلك الحرثة العبرية . وفي البلد الذي جئت منه لم يعد أحد يتحرش بالنساء في الشوارع لاشك أن نساء هذه البلاد يرفلن في حرير الغزل والنظارات الملتهبة التي تكشط عن جلودهن قشرة البلادة والإهمال ، كيف سأشرح لكافلن في إيميل موجز ، معنى العين التي تقرأ وتكلب ؟ وهل سيفهمني ويزيد من أجلي مخيلته الخاملة ... مسكين حبيبي الأميركي لن يفلح مهما فعل في مجاراة ذلك العراقي السرسري الذي حاذاني ... وحَّ الصدأ عن أتوثتي))^١ فعلى الرغم من أن (التحرش) يمثل ظاهرة سلبية في المجتمعات الشرقية فضلاً عن منافاته للقيم الأخلاقية ، إلا أنها وجدت فيه ما ينعش أتوثتها بوصفه أشبه بإطراء تطرف له المرأة عموماً ، إطراءً عابراً أذاب تبلد المشاعر الذي عاشته زينا في كنف المجتمع الغربي حتى مع حبيبها الأميركي . زينا هنا فضلت ظاهرة سلبية في مجتمع الهوية الأولى على ظاهرة إيجابية في المجتمع المتحضر ، وما تبرير ذلك إلا هو ميل لأشعروري يدفعها نحو هذا المجتمع بما فيه من عيوب ، إنّه "الإنتماء" الخفي الذي يجذبها باستمرار نحو الأصول .

استنتاج / بعد رصدنا لملامح الهجنة في شخصية (زينا) ، التي تمثلت في : الجانب النفسي ، والجانب الثقافي ، والجانب العاطفي ، وكذلك ملامح الهوية أو بقائها ، التي تمثلت في الجانب الآخر من شخصيتها بعد دخولها العراق ، نجد أنه على الرغم مما تهياً لهذه الشخصية من ظروف . أخذين بالنظر ضمانات التعددية الثقافية التي فرضت في معظم البلدان على جميع المؤسسات العامة فيها التي أتاحت للمهاجر العيش في أراضيها لا بوصفه غريباً أو "غير وطني" – إن أعلن انتمامه لهويته العرقية – بل على العكس فقد أتيحت له حرية واسعة في التعبير عنها وجعلها تتعكس وتتكيف مع المؤسسات العامة في ظل تطبيع عرقية المهاجرين^٢ . وقد يكون ذلك من شأنه أن يتيح (للمهاجر / زينا) أيضاً الاحتفاظ بهويته والإحساس بأنّها مقبولة لدى (الآخر / أميركا) الأمر الذي يهيأ المهاجر نفسياً وثقافياً لمفهوم التعايش مع الآخر أيّاً كان والأرض أينما كانت ، إلا أنها لم تتمكن من أن تكون انموذجاً مثالياً

^١ الرواية : ٨٧ - ٨٨ .

^٢ ينظر : أوديسا التعددية الثقافية – سير السياسات الدولية الجديدة في التنويع / ويل كمليكا :

لإنسان الهجنة . فإذا كان إنسان الهجنة يرى أن العالم كله أرضاً غريبةً عليه ، فهل يمكن أن ينطبق ذلك على شخصية (زينا) ؟ : زينا التي لا ترى في أي من البلدين وطنًا ، ولا تكترث للاختلافات بينها وبين من أحبتهم هذا من جانب ، إلا إنها من جانب آخر فقد عادت إلى أميركا إنسانة مصابة بداء الشجن ، إمرأة أخرى برؤى جديدة ومشاعر جديدة وضحكه ذابلة خارجة من قشرة القلب لا من صميمه ، هذا التناقض الذي عاشته زينا وعادت وهي تخترنها بداخلها لتكمل حياتها القادمة في أميركا يدفعنا للقول إنه ربما من الممكن أن يكون انموذج شخصية زينا هو مرحلة مخاض وئيدة الخطى نحو ولادة إنسان هجنة ، ربما لم يحن الوقت لأن يبلغ الإنسان العربي كينونة إنسان الهجنة فعلياً ، إذ لازال مفهوم الهوية يشكل التحدي الأقوى في تخيل الشخصية العربية ، لذا يمكن أن نقول إنّ (زينا) هي : مشروع هجنة لم يكتمل بعد ...

المبحث الثالث : إضاءة فنية

١ - البعد السينمائي : الواقع بين التخييل والحقيقة :

ينطوي هذا النص تقنية فنية ذات علاقة واضحة بالحدث السينمائي على مستوى البعد التخييلي وما له من علاقة بالواقع . إذ نجد في رواية (الحفيدة الأمريكية) محاولة للرواية في أن تضع أحداث الواقع النصيّة إزاء فن صناعة الحدث سينمائياً ، تباعاً لرواية سائدة وهي أن الحياة تسير وفق سيناريو يشبه السيناريو السينمائي رغم أن العكس هو الصحيح . فنجد كجه جي بين الحين والآخر تعرض لنا ما يحدث مع (زينا) على شكل مشهد أو حدث عبر تشبيهه بحدث أو فيلم سينمائي معين تذكر إسمه ، تقول زينا بعد أن اختير أن يكون مكان عملها في تكريت : ((إذا ، فقد كانت تكريت هي مصيري ، أعود بعد خمسة عشر عاماً من الغياب لأجد نفسي في عقر دار الدكتاتور الذي جئنا لإسقاطه . إنه فيلم " لا وحش في المدينة ")^١ ، وفي موضع آخر وهي تصف الكولونيل (بيترسون) مسؤولها : ((وجدت نفسى أقف أمام عملاق خمسينيّ وسيم عريض الحاجبين مقلوب الذقن ذي شعر قاتم تلتمع فيه شعيرات بيض جذابة . شئ مثل بيرت لانكستر في فيلم " من هناك إلى الأبد ")^٢ ، وتقول في وصف اشتياقها لممارسات الحياة اليومية العراقية : ((سأجلس أمام الصوبة وأنحني عليها مقوسة ظهري فوقها ، مسندة قدميّ فوق قاعدتها

^١ الرواية : ٥٩ .

^٢ الرواية : ٦٦ .

المعدنية الملسأء ، محتكرة دفّها لي وحدى في فيلم بعنوان " الأنانية الجميلة ")))^١ ، وهكذا تستمر في ذكر عناوين أفلام في أكثر من اثنتي عشر موضع متفرقة في النص الذي يبلغ عدد صفحاته (١٩٥) صفحة ، ويمكن أن نقول أن الروائية في ذلك بين محاولة لفت انتباه القارئ وجذبه للإحساس بالحدث ذاته عبر تخيله حدثاً فيلمياً سينمائياً ، وبين ميل نصي نحو الصورة . أي نوع من المزاوجة بين النص الكتابي السردي وبين صورة الحدث السينمائي شديدة التركيب بوصفها تقودنا بدليلاً نحو لازمتها (الحركة / الإنسان) و (الصوت) و (الكلمة) .

فعلى الرغم من حداثة الفن السابع ، وإفادته من التقنيات الجمالية لسابقاته من الفنون اللغوية ، والموسيقية ، والتشكيلية ، فهو ينماز بإمكانيات تعجز غيره من الفنون عنها بوصفه يعتمد التزامن الذي يتاح رؤية وحدات متعددة في وقت واحد ، إلاً إنه يبقى عاجز التعبير عن الأعماق غير المدركة للحس ، أشياء لا يمكن ترجمتها بالصورة ، على العكس من الرواية مثلاً ذلك الفن الذي يمتلك ناصية اللغة والجدير بالإيغال نحو العمق ، فضلاً عن محاولاتها في ضم الإمكانيات البصرية والسمعية للفن السينمائي بطريقة أو بأخرى^٢ . الأمر الذي جعل النص السردي الروائي ثرياً بالتقنيات الفنية فضلاً عما تستمد في تشكّلها من مفردات الفنون الأخرى على اختلافها . فيمكن أن نقول إنَّ غاية كجهة جي من هذا المزج بين الفن الكتابي النصي ، والفن السينمائي مركب العناصر ، هو التلميح الخفي بالواقعية المعجزة للحدث في الحياة ، والتخيل الواقعي للحدث في النص ، تلك السمة التي تتميز بها الأفلام السينمائية ، أي أنها تريد القول ضمنياً إنَّ هذا النص هو تخيل واقعي يشبه إلى حد بعيد واقعية الحياة كما هي آلية الفن السينمائي ما تلمس في ذلك ميل الروائية نحو سحب نصّها لرؤى الواقعية التي تبرزها عناصر صناعة الفن السينمائي : الحركة والمكان والزمان ، التي قد تتتفوق بها على مفردة اللغة بشعريتها بوصفها العنصر الوحيد الذي يقيم الفن الروائي عالمه عليه . لأنَّ الروائية تتبعي تجاوز الميثاق التخييلي إذ يكون القارئ على علم بأنَّ المحكي هو قصة خيالية دون أن يعني ذلك أنها مجرد كذب^٣ . فضلاً عن العلاقة التبادلية بين التخييل السردي والواقع إذ يرى إمبرتو إيكو إنَّ التخييل السردي هو أكثر طمأنينة من الواقع لهذا (علينا أن نقول هذا الواقع باعتباره تخيلاً سريداً)^٤ فلربما إذ تريد كجهة جي أن تقول أن واقعك المعيش يشبه السيناريو التخييلي . فضلاً عن غايتها في جذب اهتمام القارئ نحو أحداث

^١ الرواية : ٨٨ .

^٢ ينظر : أساليب السرد في الرواية العربية / د.صلاح فضل : ١٨٨ - ١٨٩ .

^٣ ينظر : الميثاق التخييلي / سعد محمد رحيم (دراسة) .

^٤ ٦ نزهات في غابة السرد / إمبرتو إيكو : ١٨٩ .

النص عبر صدمة بين الحين والآخر إزاء الاسترداد السردي ، وهذه بحد ذاتها تكشف حرفيّة الروائي في الكتابة وإمكاناته في التعامل مع القارئ .

٢- ما وراء القص :

وظَّفت الروائية في نصّها تقنية ما وراء القص ، التي ورد تعریفها لدى واحد من أشهر من نظر لها وهو لاري ماك كافري بأنّها (تلك الكتابات التي تختر الأنظمة الروائية وكيفية ابتداعها ، والأسلوب الذي تمَّ توظيفه لتشكيل وتصفيه الواقع بواسطة الافتراضات السردية والاتفاقيات)^١ أي أنها تقنية يكتشف من خلالها كيفية ابتداع الأنظمة الروائية عبر وجود شخصية الرواية / المؤلف أو الروائي أو القاص أو الكاتب ، فتتحدى الرواية عن أدوات الصنعة الروائية ، إذ تكون كيفية ابتداع النظام الروائي هي من ينهض بالأسلوب الذي يشكّل الواقع أي عملية إنتاج معانٍ بوساطة افتراضات أو اتفاقيات في النص هي عملية مماثلة لعملية إنتاج المعاني في العالم / الواقع ، ذلك بعدَ الحقائق ما هي إلا اتفاقيات وصناعات لغوية مع عدم إغفال الرؤية بعد الحداثية للغة بوصفها ليست أداة لمعرفة الحقيقة إنما صناعتها . فنجد هنا الجانب الآخر من شخصية (زينا) بعدَ شخصية أخرى مسؤولة عن قرارها في كتابة ما يحدث معها بعد دخولها العراق على شكل رواية بطلتها هي جدّتها التي رفضت صفة زينا جندية في الجيش الأميركي ، ما أشعر زينا بتأنيب الضمير ، وأيقظ بداخلها مشاعر مناقضة لما جاءت محمّلة به قبل دخولها العراق ، وهذا الجانب من شخصية زينا هو الجانب الذي يؤمن بالوطنية والحنين للأرض/ جانب اللاهنة رغم محاولات رفضها له ، تقول : ((أكتب وأنا أعرف أنَّ لغماً قد ينسفني في أية لحظة ... هل أعيش لأكمل هذه الحكاية التي لا تخصّني بقدر ما تخصّها هي ، جدّتي ، عدوّتي ، حبيبتي وصورة شيخوختي ؟ لذلك لا أرغب في الاستجابة لهذه المؤلفة اللوجر التي تزاحمني على الكمبيوتر ... إنّها تريد أن نقر معاً بأربع أيام وعشرين إصبعاً قصة الحفيدة الأميركيّة العائدة إلى بيت العائلة في بغداد ، وأنا لا أريد هذه المؤلفة إلى جواري ، أدفعها عنّي... وأنقر على لمسات تمسح المكتوب على الشاشة . أزعجتني المؤلفة منذ أن رأيتها تدور وتناور وتقتلع المشاكل لكي تكتب رواية وطنية على حسابي . ت يريد هذه الكاتبة ... أن تغالني لكي تناول إعجاب النقاد الحمقى وسياسيّ التلفزيونات ووطنيّ زمان العصبيّ . أن تجعل مني الشخصية الشريرة الملعونة ، ومن جدّتي بطلة طيبة وشجاعة ... تراني المؤلفة ربيبة للاحتلال ، وترى جدّتي من نفّاس المقاومة ... رسمت لي ملامح البنت الضالة ، العائدة فوق الدبابات الأميركيّة... نزيلة المنطقة الخضراء ... وترفض عليَّ أن أستسلم لخيالها القومي

المتوارث بلا تنقيح ... حبكة روائية ضيقة تخنقني وتسلبني الحق في أن يكون لي رأي ... لماذا تحرمني المؤلفة من أن أشارك على طريقتي وبكامل قناعاتي في الرواية ... أراهن أن هذه المؤلفة لا تعرف سوى كلام الملقين .. أرثي لوطنيتها التي ولّى زمانها ... لتدّه مؤلفتي إلى حيث .. سأحرض جدي.. هي لن ترضى أن تضع وطنيتها في عهدة كاتبة مسختها أزمنة الانقلابات الثورية والأحزاب القومية ... لن أدع جدي تمنحها تاريخ جدي. يا إلهي كم نتقاطع أنا و ذلك التاريخ ، وكم نختلف)^١

هنا تتكشف أمامنا الأنظمة الروائية ، وأدوات النص الروائي وكيفية ابتداع النص عبر وجود شخصية المؤلفة ، ونظام الكتابة المتمثل بالحبكة الروائية ، وهدف الكتابة الذي شَكَلَ صراعاً بين زينا وذاتها (المؤلفة) ما يمثل ظروف واقعها الذي تعشه ، زينا التي لا تؤمن بالانتماء والهوية ، وزينا المؤلفة التي ترى بذلك خيانة للوطن .. الرواية هنا تتحدث عن الرواية وهي بذلك تحاول أن تكشف عن زيف الاتفاقيات المتمثلة بمفاهيم الهوية والانتماء وما تسميه هنا شعارات قومية جاهزة ، هناك صراع داخل هذه الشخصية أحدهما ترى الانتماء والهوية برؤية جديدة والأخرى تراه بنمطه القديم المتجسد بشخصية الجدة . لذا نلمس ذكاء التوظيف لتقنية ما وراء القص في هذه الرواية عبر ما أوجده من فارق بين جنبي شخصية زينا في النص الذي يعكس فارق الرؤى للمفاهيم في الواقع .

٣ - ما وراء التخييل :

استعملت الروائية تقنية (ما وراء التخييل) في نصّها ، تلك التقنية التي ترفع الخطاب الروائي إلى مستوى الخطاب الحقيقى الجاد ، فكيف يكون ذلك ؟ لقد تحدثت (زينا) بعد استيقاظها من النوم عن حلم ، تقول : ((رغم نومتي المرتجلة فقد رأيت حلماً عجبياً .. رأيتني أطرق باب بيت جدي يوسف في شارع الريبع وأنا مرتدية فستان عرس بنفسجي اللون . ولم يكن البنفسجي من ألواني المفضلة لكن الأحلام لا تترك لنا رفاهية الاختيار . وقد فتح جدي الباب ولم أخف منه رغم علمي ، وأنا في الحلم ، بأنه قد مات . وسألته : - متى جئت من السفر ؟ رد : قمت من يومين . أردت أن أحضر عرسك يا سنا .. ولم أصح له اسمى . لم أقل له إنني زينة ، أو زوينة كما اعتاد أن ينادياني ... إجتررت باب الحديقة وتقدّمت من جدي لكي أقع على يده وأُقبّلها . لكنه سحبها فانسحب جسده بالكامل من المشهد ، وفي اللحظة نفسها تحول لون فستان عرسي إلى الأسود ...))^٢ الحلم هو تخيل ، والكشف عنه في النص بأنه حلم هو كشف عن هذا التخييل ، والتخيل بحسب والاس مارتن هو تظاهر ، وهو

^١ الرواية : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ .

^٢ الرواية : ٤٤ .

يرى أن كشف الكتاب لهذا النظاهر / التخييل والتنبيه عليه – من خلال التعريف بأنه حلم – فهم بذلك لا ينطahرون ولا يعرّبون عن التخييل لمجرد الكشف عنه ، إنما هم في ذلك يرفعون خطابهم الروائي الذي يمثل الإطار العام أو مرجعية ذلك التخييل/ الحلم إلى مستوى الخطاب الجاد وال حقيقي^١. فيكون تضمين التخييل/ الحلم داخل التخييل/ الرواية هو تقنية قادرة على التلاعيب النصي الذي يثير لدى القارئ الأحساس بواقعية النص عبر بعض الإشارات مثل حديث زينا في الحلم : (ولم يكن البنفسجي من ألواني المفضلة) و (فتح جدي الباب ولم أخف منه رغم علمي ، وأنا في الحلم ، بأنه قد مات) فهي إشارات تتطوي على مقارنه بين حلم وواقع تدفع القارئ بمهل للتماهي مع النص الروائي الذي يشكل مرجعية الحلم على أنه واقع وليس تخيل .

الخاتمة

حينما وضعني مفهوم الهجنة وجهاً لوجه مع مفهوم الهوية بوصفها السردية الأكثر إشكالية في واقع اليوم إذ إننا في مجتمع يمتثل لإشكاليات الهوية بل أخذ يتوارى خلف أزماتها ، فقد بدأ سعي هذا البحث حول مفهوم الهجنة من تلك المواجهة ، ومن ثمَّ تسلیط الضوء على هذا المفهوم الذي نال اهتماماً واسعاً لدى المفكّر إدوارد سعيد ، فبعد أن حاولنا استخلاص إشارات دقيقة عن مفهوم الهجنة الذي تمثل بالجانب النظري للبحث ، تحولت نحو تلمّس ملامحه في الشخصية الرئيسة للنص الروائي (الحفيدة الأميركيّة) إنموذج البحث بوصفها تشّكّل الشخصية الأقرب لأن تكون حاضنة لفكرة الهجنة – وقد يبدو ذلك واضحاً من عنوان الرواية – فهي عراقيّة أميركيّة ، مسيحيّة وأخت بالرضاعة لمسلم ، وعبر رصد المفهوم وفق عدة محاور للشخصية رصداً بالمقابل من ذلك ملامح أخرى مناقضة لفكرة الهجنة في تلك الشخصية تمثّلت بملامح ولاء للهوية الأصل جعلت من الشخصية تتارّجح بين هذا وذاك ، ما جعلنا نعدّها النتيجة التي خرج بها بحثنا بعد جهد التقسيّي لهذا المفهوم وهي :

- أن الهجنة مفهوم لازال عصياً على التحقق بوجهه الأكمـل لدى الفرد العربي على الأقل .
- بالوقت الذي يعني إن الهوية سيظل مفهوماً عصياً على التلاشي لقادم من العقود .

^١ ينظر : نظريات السرد الحديثة / والاس مارتن : ٢٤٠ .

ربما لو قُدِّرَ لمجتمعاتنا تحقيق ذاتها بسبل أخرى غير مناورات الهويات وخطاباتها لما واجهت الذات العربية عجزها أمام مفهوم الهجنة ، إلا أنَّ السياسات المركزية لن تتخلى عن ورقتها الرابحة في لعبة السيطرة .

الخلاصة

تتناول هذه الورقة البحثية موضوع الهجنة بوصفه مفهوماً مضاداً لمفهوم الهوية عبر ما يمكن أن يتحققه من متغيرات لو ألقى بظلاله على المجتمع . فكان التركيز على جوانب متعددة للشخصية تمثلت في البحث بالجانب العاطفي ، والجانب الثقافي ، والجانب النفسي بوصفها دراسة تطبيقية على النص الروائي إنموذج البحث وهي رواية (الحفيدة الأميركية) للروائية العراقية إنعام كجهة جي ، فكان من شأن هذه الورقة أن رصدت ملامح الهجنة للشخصية الرئيسة لذلك النص فضلاً عن ملامح أخرى جاءت بالموقف النقيض منها أو أوصلت البحث نحو عدٌ فكر الهجنة بأنه فكر لا زال وئيد الخطى نحو ترميم الواقع الاجتماعي الهووي الخاضع بالضرورة لسياسات الهويات المركزية الغربية .

المصادر

الكتب /

- ١ - إدوارد سعيد : الهجنة ، السرد ، الفضاء الإمبراطوري / مجموعة من الأكاديميين العرب ، إشراف وتقديم : د.إسماعيل مهنانة ، إبن النديم للنشر والتوزيع - الجزائر (ط ١) ٢٠١٣ .
- ٢ - أساليب السرد في الرواية العربية / د.صلاح فضل ، مركز الإنماء الحضاري - حلب (د.ط) ٢٠٠٩ .
- ٣ - أوديسا التعددية الثقافية - سبر السياسات الدولية الجديدة في التنوع / ويل كمليكا ، تر: د. إمام عبد الفتاح إمام ، عالم المعرفة - الكويت (ج ١) ٢٠١١ .
- ٤ - الحفيدة الأميركية / إنعام كجهة جي ، دار الجديد - بيروت (ط ٢) ٢٠٠٩ .
- ٥ - السلطة والسياسة والثقافة / إدوارد سعيد ، تر: دنائلة فقيلي حجازي ، دار الآداب للنشر والتوزيع - بيروت (ط ١) ٢٠٠٨ .
- ٦ - الكولonialية وما بعدها / آنيا لومبا ، تر: باسل المسالمة ، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر - سوريا (ط ١) ٢٠١٣ .
- ٧ - تأملات حول المنفى ومقالات أخرى/ إدوارد سعيد ، تر: ثائر ديب ، دار الآداب للنشر والتوزيع - بيروت (ط ٢) ٢٠٠٧ .
- ٨ - جماليات ما وراء القص دراسات في رواية ما بعد الحداثة / مجموعة مؤلفين ، تر: أمانى أبو رحمة ، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع - سوريا (د.ط) ٢٠١٠ .

- ٩- ٦ نزهات في غابة السرد / إمبرتو إيكو ، ترجمة وتقديم : سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء (ط ١) ٢٠٠٥ .
- ١٠- لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ؟ الثقافات البشرية : نشأتها تنوعها/ مايكل كاريذرس ، تر: شوقي جلال ، عالم المعرفة/ الكويت .
- ١١- نظريات السرد الحديثة / والاس مارتن ، تر: حياة جاسم محمد ، المجلس الأعلى للثقافة – الإسكندرية (د.ط) ١٩٩٨ .
- الدراسات /
- ١- أصل الإنسان وتاريخه / نادر قربيط ، مجلة الأوان ، منشورة بتاريخ : ٢٠١٠/٧/٢٥ .
- ٢- إنثربولوجيا الدازلين – قلب المفهوم التقليدي للكائن الإنساني / د. إسماعيل مهناة ، مجلة الكلمة ، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث ، العدد (٧٢) ٢٠١١ .
- ٣- الجنس البشري أصله من أفريقيا ، دراسة منشورة في موقع بي بي سي أونلاين .
- ٤- كيف يتتطور مفهوم الثقافة استجابةً لتحديات العولمة / هديل غnim ، مجلة الأهرام الديمقراطية ، منشورة بتاريخ ٢٠١٤/٦/٢٦ .

الهجنـة والـإنسـان الـأخـير
(الـحـفـيـدة الـأمـيرـكـيـة) إـنـمـوـذـجاً

م.م رنا فرمان محمد

آذار ٢٠١٥